

المحاضرة 2:

نشأة علم الاجتماع:

خلال القرنين 18 و19، وفي سياق تميز بتحويلات اقتصادية سياسية واجتماعية عميقة، كان لمفكرين أمثال: أوجست كونت *Auguste Comte* (1798-1857)، كارل ماركس *Karl Marx* (1818-1883)، إميل دوركايم *Emile Durkheim* (1858-1917) وماكس فيبر *Max Weber* (1864-1920) أن انشغلوا بطبيعة المجتمع الناشئ. ليكونوا بهذا قد وضعوا أسس تساؤل سوسيولوجي يتجاوز مرحلة التفكير الاجتماعي الأخلاقي التي سادت الفكر الفلسفي الإغريقي الإسلامي والآسيوي، إلى تفكير أكثر علمية وموضوعية في أسباب ونتائج الظواهر الاجتماعية.

سياق خاص:

إن كان الأمر يتعلق بسياق الأحداث أو بالسياق الأيديولوجي، فلقد عرفت فرنسا وأهم البلدان الأوروبية (ألمانيا وإنجلترا) في القرن 18 وبالخصوص في القرن 19 تغيرات عميقة. إنه واقع جديد زعزع دعائم النظام الاجتماعي القديم ومهدّ لظهور إشكالية سوسيولوجية خاصة، تتعلق بقضايا الرباط الاجتماعي (التضامن الاجتماعي) وعوامل التغيير الاجتماعي.

أ. سياق الأحداث:

عادة ما يقال عن علم الاجتماع أنه "وليد الثورات". المقصود بالثورات في هذا الإطار هو الثورة الفرنسية على الصعيد السياسي والثورة الصناعية على الصعيد الاقتصادي. فبإعادتهما صياغة النظام الاجتماعي القديم أفرزتا رهانات جديدة متعلقة بالمجتمع الجديد قيد البناء، وكذا العديد من المخاوف الناجمة عن انتشار العديد من المشكلات الاجتماعية الملحة مثل البطالة، الاكتظاظ، الإدمان على الكحول، البؤس الحضري، العنف... الخ.

• **على الصعيد السياسي:** الثورة الفرنسية (1789) وعبر الأفكار التي سوقت لها، والمبادئ التي نادى بها، وعبر الإصلاحات التي نفذتها، تكون قد دمرت بعض العقائد والمبادئ وكذا التوازنات السياسية والاجتماعية التي كان يقوم عليها النظام الاجتماعي القديم.

مثال: وقف العمل بالقانون الإقطاعي، إقرار بيان حقوق الإنسان والمواطن، مفهوم المواطنة، ظهور تشكيلة اجتماعية جديدة أكثر ليونة/ميوعة، أصلا قانون الأسرة (قانون 1792 الذي يجعل من الزواج عقد مدني) ما أوجد أشكال عائلية جديدة.

• **على الصعيد الاقتصادي:** الثورة الصناعية ولدت الرأسمالية الحديثة، التي بإرسائها لقواعد نظام إنتاج جديد أحدثت تحولات عميقة في النسيج الاجتماعي ومكوناته. بعض هذه التحولات قادت إلى اختلالات اجتماعية أعطت أهمية كبيرة لما صار يسمى "المسألة الاجتماعية". المسألة الاجتماعية مصطلح ظهر نهاية القرن 19 ويحيل إلى المشاكل والنزاعات الحاصلة في المجتمع الصناعي الجديد.

السنة الأولى جذع مشترك ميدان علوم الاقتصاد، التجارة والتسيير كلية العلوم الاقتصادية، التجارية وعلوم التسيير

مثال: تزايد عدد المدن الصناعية (مانشيستر، ليون...) وُغِدَّتْها من البؤس والفقر والمساكن الرديئة. مثال آخر: تحول شرائح عريضة من أفراد المجتمع إلى عمال كادحين. فمع ظهور المصانع وانتشار الآلات، عمّ العمل بالأجر، ما أنتج طبقة اجتماعية جديدة: طبقة العمل، التي تعرف تدهورا لأوضاعها المعيشية والمهنية.

في المحصلة، يمكن الجزم أن نتائج الثورتين الفرنسية والصناعية شكلتا قطيعة واضحة مع الوضع السابق. لقد أعلنتنا نهاية المجتمع التقليدي المؤسس على العائلة، الأرض، المجموعة القروية والكنيسة. فكان لنظام اجتماعي جديد أن يتأسس، ولنماذج جديدة من التضامن الاجتماعي أن تظهر، ولمفهوم جديد للعيش المشترك أن يُفكر فيه. هذه هي الأهداف التي حددها رواد ومؤسسي علم الاجتماع وسعوا إلى بلوغها.

ب. السياق الأيديولوجي:

على المستوى الفكري، امتاز القرنان 18 و 19 بارتقاء مكانة العقل والاحتكام إليه من جهة، وبهيمنة بعض الأفكار السياسية من جهة أخرى.

المؤسسين الأوائل لعلم الاجتماع تَوَثَّرُوا إلى حد بعيد ببعض هذه الأفكار، الأمر الذي سيظهر في أعمالهم وينعكس على تصورهم للعلم الجديد.

• ارتقاء مكانة العقل: القرن 18 يعتبر قرن الأنوار. من بين فلاسفة الأنوار نجد: فولتير *Voltaire*، روسو *Rousseau*، مونتيسكيو *Montesquieu*، كانط *Kant*... هؤلاء المفكرين وضعوا العقل فوق كل شيء، وأككلوا له سلطة مطلقة تتجاوز حتى سلطة المقدس (سلطة رجال الدين والكتب المقدسة). بالنسبة لهم الإنسان يجب أن يكون مركز المعرفة ومصدرها، كما تظهره مقولة كانط "فلتكن لديك الشجاعة والجرأة لتستخدم فكري". هذا التوجه العقلاني أنتج في المجتمعات الأوروبية انجذابا قويا نحو العلم والمعرفة. ليكون عصر التنوير مناسبة لظهور العلمية والفلسفة الوضعية.

العلموية (*Scientisme*) نزعة تقوم على الإيمان بالقوة الكبيرة للعلم وقدرته على حلّ كل مشاكل الإنسانية. هي كذلك اعتقاد فلسفي يؤكد أن العلم يتيح لنا معرفة كلية للأشياء الموجودة في الكون، وهي كافية لتحقيق الطموح الإنساني.

الوضعية (*Positivisme*) عقيدة فلسفية طورها أوغست كونت والتي تعتبر أن المعرفة الوحيدة (أو السبيل الوحيد للمعرفة) هي ملاحظة الوقائع والتجربة العلمية.

رواد علم الاجتماع الأوائل انظموا إلى هذا الإيمان بالعقل والعلم. فحرصوا على تطبيق المبادئ العقلية للعلوم في تحليلهم للظواهر الاجتماعية.

• تأثير الأفكار السياسية: من كل الأفكار السياسية التي ظهرت ونمت في القرنين 18 و 19، يمكن القول أن "الفكر المحافظ" (*Conservatisme*) هو الذي على علاقة أقرب بميلاد علم الاجتماع.

الفكر المحافظ تيار أيديولوجي/سياسي يستنكر الاختلالات الاجتماعية الناتجة عن الثورتين الفرنسية والصناعية. العديد من مؤسسي علم الاجتماع تأثروا بهذه الأيديولوجية (خاصة دروكايم). بالعودة إلى تاريخ الأحداث والأفكار يتبين لنا أن علم الاجتماع ظهر في سياق تحولات محفزة على التساؤل السوسيولوجي. إذن ليس صدفة كون أساسات التحليل السوسيولوجي ظهرت خلال القرن 19، وكون المفكرين المعاصرين لهذه التحولات هم من سيضع قواعد علم اجتماعي جديد.